«الفساد» وحتمية التاريخ

حرب رمضان ١٩٧٣

(١)

لكل حرب قاموسها .. ولما كانت حروب اسرائيل كثيرة، فقد كثرت قواميس الحرب فيها. ويخيل لي احيانا انه اذا ما استمرت الحال على هذا المنوال فسيجيء يوم تصبح فيه مفردات القتال ومصطلحات النزال صاحبة الصدارة في (لغتنا العبرية)!

أبرز كلمتين اتت بهما "حرب حتمية التاريخ" - المسماة ايضا حرب رمضان او حرب يوم الغفران - هما كلمتا: "زلزال" و "محدال".

أما الزلزال فنعرفه، وأما "محدال" فهي لفظة عبرية، فعلها الثلاثي هو "حدل" ومعناه "كف" او "توقف".. وهي تخبر باختلال النظام وقصور الوتيرة.. ولما لم يجد المترجمون لفظة عربية مطابقة لها تماما فقد تراوحت ترجمتها بين "الاهمال" و"التقصير".. وازعم أن اللفظة العربية المقابلة من حيث المضمون العام، لا الحرفي، هي لفظة "فساد" لانها اللفظة التي تطفو على سطح القاموس وتبرز بين سواها من التعابير العربية التي تفسر النكسات او تبررها.

اذن، فمنذ الحرب الاخيرة اصبحت كلمة "فساد" من اكثر الكلمات شعبية ورواجا في سوق الصحف والمنتديات واقبل القوم على استهلاك هذه الفاكهة الجديدة المرة وتداولتها الالسن والاسماع بصخب قصر عنه ذلك الصخب الذي اشتهرت به الاغنية "يروشلايم شل زهاب" (اورشليم الذهبية)، في اعقاب احتلال القدس العربية في عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧.

وأخيرا تم تتويج كلمة "فساد" ملكة على قاموس الحرب الاخيرة، بصدور اول كتاب وثائقي عن هذه الحرب بعنوان "الفساد". وقد طبع هذا العنوان ببنط عريض على خلفية، تغطيها صورة السيدة غولدة مئير مجهشة بالبكاء.

أسهم في وضع الكتاب سبعة من ابرز الصحفيين في اسرائيل كانوا جميعا ضباطا او جنودا او مراسلين عسكريين في اكثر من حرب اسرائيلية، وهم: يشعياهو بن فورات، يهونتان جيفن، اوري دان، ايتان هابر، حازى كرمل، ايلي لانداو، وايلي تابور. وقد اصدرت الكتاب "دار نشر خاصة"، ونعتقد ان اية من دور النشر المعروفة في البلاد ما كانت لتنشر مثل هذا الكتاب الوثائقي، لانها غير معنية على الاطلاق، بذر الملح على الجرح!

تتصدر الصفحة الاولى من الكتاب قصيدة للشاعر الصهيوني المعروف حاييم نحمان بيالك.. وهذه القصيدة تذكرنا بافتتاحيات المسرحيات التراجيدية اليونانية التي توحي بالجو القادم في اعقابها.. وقصيدة بيالك تحمل عنوان "رأيتكم ثانية في عجزكم"، وهي تنز اسى ومرارة، ولتذهب روحي ان كان في نفسي ذر من الشماتة!

من ثم، يأتي مدخل الكتاب، وضعه المؤلفون لشرح الملابسات

التي دفعتهم لاصدار عملهم المشترك، فهم يقولون في المدخل:

"... بعضنا أتيحت لهم الفرصة لمشاهدة الحرب وفظائعها، ورؤية وجهها الخفي عن عيون الكثيرين. عدنا من الحرب والفينا انفسنا جزءًا من شعب حزين، مهموم، قلق، تلاحقه علامات الاستفهام. عدنا الى منازلنا وروتين اشغالنا، ووقفنا مذهولين ازاء اولئك الذين يحاولون الاستمرار وكأن شيئا لم يحدث، وكأنما لم تقع هذه الحرب، وكأنها لم تغيرنا جميعا. وقفنا مذهولين في مواجهة محاولات التغطية والطمس واخفاء الفساد الذي ادى الى هذه الحرب، بحيث تبدأ كما بدأت وتنتهي كما انتهت، وفي مواجهة اوهام القادة الذين يحاولون التملص من مسؤولية الفساد الرهيب".

ثم يعترف المؤلفون بأن بعضا منهم اسهموا قبل الحرب في نشر الرعونة والطيش "والاستخفاف بالعدو" والثقة الذاتية المطلقة وسائر العناصر التي يتركب منها ما يسمونه "الفساد".

بعد اعترافهم يؤكدون على حق الجماهير في معرفة جذور ما حدث، فالمعرفة حق اساسي، وهم لا يريدون الاسهام في مؤامرة الصمت" التي تحاك حول الزلزال ومسبباته. وهم يرون في نشر هذا الكتاب استجابة للضمير الصحفي والواجب الوطني.

ثمة مدخل آخر للكتاب، هو صفحات مجتزأة من مقابلة صحفية مع ضابط اسرائيلي في سلاح المدرعات .. وقد جرت المقابلة في اكتوبر ١٩٧٣ على هضبة الجولان المحتلة:

"* اسمى ايلي. زي بعضه، فعلى اية حال لن تنشروا أسمى. عمري اليوم ٢٦، وانا طالب جامعي، اكرهكم، اكره الصحفيين الذين يرتزقون من الجثث، ويمجدون الحرب بالالفاظ الكبيرة الصاخبة. لن

انسى اللحظة التي رجعت فيها من المعركة على مفرق الرفيد في الهضبة. على دبابتي كان ١٤ جريحا، استطعت انقاذهم من الدبابات الأخرى التي كانت في كتيبة. من بين جميع دبابات الكتيبة بقيت دبابتي وحدها. وحين بلغت نقطة تجميع المصابين، مثقلا بالجرحى النازفين، الممزقى الاطراف، هجم علينا مصور وصحفي من التلفزيون، هو ذلك الذي يضع نظارة طبية (ليس الذي يذيع من الكنيست)، وفي حنان الابداع الفني، راحوا يصورون الجرحى. في تلك اللحظة راودتني الرغبة في اطلاق النار عليهم، على تلك المخلوقات، التي تنتشل القصص المروعة من الاشلاء العائدة من المعركة، تلك المخلوقات التي تقبع كغربان الجيف في محطة تجميع المصابين، منتظرة العائدين.

ما هو البطل؟ لا اعتقد انني بطل. كل الابطال الذين كانوا معي، اصبحوا في عداد الموتى. انا مجرد ضابط مدرعات يريد ان يعيش، وقد ادركت انني ما لم اواصل السير واطلاق النار فساكون المصاب القادم. وعلى اية حال، من ذا الذى حارب من اجل هذا الشعب؟ ربما ١٠٪ من هذه الكومة الكبيرة التى يسمونها جيش الدفاع الاسرائيلي، وفى الاساس طواقم الدبابات. وما هو عدد هؤلاء؟ وان كنتم تعتقدون ان جميع هؤلاء يحاربون، فانتم على خطأ. هناك بضعة منهم فى كل فرقة، وهناك المحبطون، والمترددون الذين يحاولون انقاذ حياتهم، ولكن غالبا ما يفوتهم الاوان، فيتلقون الضربة مثل الآخرين. انتبهوا الى الذين سقطوا فى المعركة! () تقريبا من القتلى هم من القادة. فكروا فى هذا ربما كان القادة ١٠٪ من المحاربين، وبين القتلى (-) من القادة!

أقول الحقيقة، لقد مللت هذا الوضع. إجتزت ثلاث حروب: حرب الايام الستة، حرب الاستنزاف، وهذه الحرب. حين سمعت في الراديو عن الحرب صرت ارتجف. كنت واثقا من انني ساموت هذه المرة، فلم يعد باستطاعتي اللعب بالتملص من ملاك الموت. في حرب الاستنزاف اصابتني شظايا في الجبين والعنق، وتعرض عمودي الفقري لضربة من غطاء الدبابة بقوة ١٥٠كغم، وكنت مهددا باصابة شلل مزمنة. لكني كنت آنذاك اكثر شبابا. في حرب الايام الستة كنت مع ايهود العاد، اذا سمعتم عنه- كان قائد فرقة عندنا في سلاح الدبابات. اجتزت معه معركة الجرادة. فصل كامل كتب عن هذه المعركة في كتاب "مكشوفون على الدبابات"، آنذاك ظننا انه لن يكون اسوأ من هذه المعركة، لقد ارتجفنا حتى الخصيتين، من قصف الهاونات المصرية التي انصبت علينا كالمطر. هذه المرة حين قصفونا بالهاون استقبلنا ذلك بالابتسام، ولكن في هذه المرة سقط علينا كل ما اخترعه الانسان حتى يقتل المرء زميله: مدافع، دبابات، مدافع محمولة على سيارات الجيب، قذائف مضادة للدبابات، هاونات، سلاح خفيف، وكل ما تتصورونه. حين اتذكر ما علمونا اياه عن معركة موشيه بريل على سد روافه في حرب سيناء عام ١٩٥٦، فانني اتذكر اننا جميعا انفعلنا آنذاك بالبطولة. أما اليوم فذلك يثير ضحكنا. كل موقع محصن على هضبة الجولان كان معركة اقسى بكثير من حكاية بريل تلك. ما فعلته طواقم الدبابات هذه المرة، لو فعلته في الحروب الماضية، لكانوا يبوسون اقدامنا ويغطونها بالميداليات.

في حرب الاستنزاف كنت اكثر فتوة، واكلت كل الخرا في موقع

شمالي القناة، ذلك الموقع الذي كان معزولا عدة ايام ولم يكن من الممكن وصول الامدادات اليه. اي شيء لم يجربوه؟ على الجمال عبر المستنقعات على ظهور المظليين، وغير ذلك. كنا معزولين في الموقع حتى مع جثث زملائنا الذين سقطوا. أخذ شعري يتساقط من هذه الحكاية، حيث لم يكن لدينا أي طعام يحتوي على فيتامينات. وصدقوني انه ليس في عائلتي ميل للصلع. لكننا كنا نعلم آنذاك اننا لو تحركنا ٢٠٠ متر الى الخلف، من القناة الى تحصيناتنا لكان باستطاعتنا تناول وجبة غذاء. اما اليوم فلم يخطر في بالنا شيء كهذا، حيث لم يبق من وحدتنا سوانا انا وقائد الفرقة. لقد تلقى قائد الفرقة ضربة من طائرة ميغ انقضت عليه بصورة خاطفة، واصابت ٥٠ مترا امامه. ما عاد يريد دخول الدبابة. اما انا، بجانبه، فقد بدا لي الوضع اقل رعبا وواصلت السير لانقاذ زملائي من سائر الدبابات المصابة. في هذه الاثناء استدعوا الفانتومات لتساعدنا في هذه المعركة المروعة، وهنا وقع الشيء الذي كاد يحطمني تماما. كنت قد انزلت شارتي الجوية عن الدبابة بسبب ضجة السفر. ويبدو ان أحدى الفانتومات قررت انني أنا ايضا انتمي الى العرب، فقذفتني بصاروخين، ولا اعرف، كيف، باعجوبة، سقطا على بعد ثلاثة امتار خلف دبابتي. ومن جراء دوي الانفجار المرعب طار رفرف الدبابة وانزل ضربة عنيفة بظهري، نفس الظهر الذي اصيب في حينه، في حرب الاستنزاف، ومنذ ذلك الوقت طالبني الاطباء بالحذر حتى لا اصاب بشلل نصفي. والذي قتلني تماما هو انني حين ابلغت قائد الفرقة بان طائرة فانتوم هاجمتني، رد علي ببرود غير طبيعي "ماذا؟ لم يصبك؟ هذا غير مألوف منهم!"

حين وصلت نقطة تجميع المصابين، كنت لا ازال غير قادر على استيعاب كل مشاهد فرقتي، المبددة المصابة، ولا سيما موت اورى. اورى كان صديقي منذ طردنا معا من دورة نظامية. اجتزنا معا دورة قادة الدبابات. كان في سني، جميلا، بصورة غير طبيعية. يوم تزوجت قبل اربعة اشهر، طلب مني أن أريحه من سخافات الحديث عن الزواج. اما الان، فهو بالتأكيد لن يتزوج. في نقطة تجميع الجرحى التقيت بوجه اعرفه. قال انهم ارسلوه الينا ليغني. سالته من يكون، وحين قال لنا أسمه انفجر الجميع ضاحكين. قلت له ان يذهب الى جهنم، وليغن في بيته. ماذا يعتقدون؟ افي غمرة هذا الجنون حيث الجميع يقتلون ويجرحون من حولنا، يبقى لاى منا مزاج لهراء اغاني الحرب تلك! ليذهب وليضحك الابطال في المؤخرة. صدقوني أنه ما من أحد سوانا يعرف ما هي الحرب، وما معنى حاجتك، ليس للجهد الجسماني فحسب، بل للجهد الفكري ايضا، حتى لا يكون الجندي السوري البادىء في اقتناصك. التعرض للقصف ليس هو الحرب. هناك، أما انك تصاب او لا تصاب. اما عندنا فان الذي يتردد للحظة، والذي يصعب عليه التفكير بسرعة، فهو الذي سيتلون عليه صلاة الموتى.

أبي يحكي لي انه عاش اربع حروب. هذا صحيح، في الحرب العالمية الثانية كان حارسا في معسكرات صرفند. في حرب التحرير اشترك في الحصار في بن شيمن، حتى انه رأى بعض القذائف. انظروا، كيف انهم جعلوا من حرب التحرير مسألة كبيرة. تعالوا ناخذ المعارك الكبيرة التي وقعت مع القوافل في طريقها الى القدس المحاصرة، تلك المعارك التي تعتبر مجد حرب البعث، ماذا حدث هناك. اطلقوا النار قليلا، ومات البعض هنا وهناك، ولكن في غضون سنة كاملة قتل هناك ما قتل عندنا في معركة واحدة.

ماذا أقول لكم؟ ان الحروب تتطور وأنا أرتجف. سمعت أن زملاءنا على القناة اصابتهم تلك الصواريخ التي ماذا يسمونها؟ "ساجر". نحن هنا لم نعرف بذلك، وربما عرفنا. ولكن من يعرف نوع الضربة التي تلقتها الدبابة المجاورة له؟ على أية حال فان الخوف من تلك الاشياء التي تتطور يفقدني الهدوء. انا اعرف انها مسألة وقت، حتى اقتل. اتقولون انني عملت ما فيه الكفاية؟ وان اعطى للشبان الاخرين مهمة مواصلة الموضوع؟ يا حبيبي، كما اعرف نفسي، فانني اعرف كراهيتي لها. لماذا؟ لانني قائد دبابة، والتهمت ثلاث حروب، وخوفي من القذائف اقل من خوف سواى، وأنا اتفوق كثيرا على أي شاب ياخذونه ويجعلون منه فجاة قائد دبابة.

لن انسى كيف انهم في احدى فترات خدمتي الاحتياطية، ارسلوا الينا مظليا ما، ليشرح لنا جغرافية البلاد، وكيف ان ذلك الولد اخذ يتكلم عن الحرب القادمة بحماس وكيف اننا سناخذ دمشق. اما انا فقد راودتني الرغبة في صفعة. واليوم، لن تصدقوا، انني حين عدت الى نقطة تجميع المصابين مع الجرحى الاربعة عشر على متن دبابتي، فقد رأيت سيارة جيب للدورية ومن تحت تلك القنارة تعرفت على ذلك المظلي الذي يحب الحروب. ذكرته بلقائنا السابق وقلت له ان ينظر جيدا الى الاصدقاء على دبابتي، واذا كان لا يزال متحمسا لهذه المسألة .. وقد نكس هذا الرجل عينيه في خجل"..

(٢)
العودة الى الحجم الطبيعى

نستعرض هنا فصلين من كتاب "الفساد"- الفصل الاول هو "ظل الكارثة"، والثاني هو "ولهم عيون ولا يبصرون"، ولما كان الفصل الاول قائما على تسجيل الانطباع العام عن الوقائع الحربية على جبهتي السويس والجولان، بينما يتناول الفصل الثاني بعض المقدمات الاستخبارية السرية السابقة لاشتعال النار، فقد ارتاينا تقديم فصل على فصل، صونا للتسلسل المنطقي..

(ولهم عيون ولا يبصرون ..)

يسجل المؤلفون في هذا الفصل زعمهم بان الاستخبارات الاسرائيلية والاستخبارات الامريكية المتعاونة معها في مجال احتلاب الاسرار العسكرية العربية، عرفتا مسبقا بالتحرك العربي نحو تجديد القتال، غير ان المعلومات المتجمعة لدى القيادتين العسكرية والمدنية في اسرائيل، قوبلت بالحكم الخاطىء "امكانية الحرب ضئيلة" و "يبدو ان شيئا لن يحدث" ..

ويرد المؤلفون نكسة اسرائيل الى "سلسلة اخطاء تراجيدية في ثلاثة مجالات":

"خطأ الاستخبارات العسكرية، التي هي العنصر المسؤول عن تجميع المعلومات حول تحركات العدو واستخلاص النتائج المطلوبة.

خطأ الذراع المدنية - التي هي حكومة اسرائيل، او، لمزيد من الدقة، "برلمان الحرب" المقلص الذي اقيم بمبادرة رئيسة الحكومة

وبمسؤوليتها الشخصية- وقد اخطات (الحكومة - س.أ) في تقدير الوضع، وسقطت في فخ التضليل الذي نصبه العدو، ولم تعبأ بالتحذيرات المتواصلة التي تلقتها من مصادر استخبارية مختلفة.

خطأ القيادة العليا لجيش الدفاع الاسرائيلي، التي لم تعارض تقديرات الاستخبارات و"برلمان الحرب"، ولم تهيىء نفسها كما ينبغي لامكانية الهجوم الشامل على الجبهتين، ولم تتصرف بالسرعة والفعالية المطلوبتين حين فرضت الحرب، فعلا، على اسرائيل".

في هذا الفصل كما في معظم الفصول الاخرى ينطلق المؤلفون من تقدير العنصر الذاتي الاسرائيلي ولا ياخذون بعين الاعتبار العنصر الموضوعي المتجسم في التحولات العسكرية والسياسية الكبرى التي طرأت على قوى الجانب الآخر - الجانب العربي، ولا نعرف اذا كان تجنب الدوائر المسؤولة في اسرائيل "للاخطاء" المذكورة، سيغير كثيرا مما حدث، وعلى أية حال فلا يجوز لنا أن ننسى ولو للحظة واحدة ان هذه الوثيقة تعكس احدى وجهات النظر الاسرائيلية، وافكارها ومواجسها تنسحب على عقلية قطاع واسع من السكان، ولعل هذه الوثيقة تستمد اهميتها من هذه الحقيقة، من حقيقة كونها انعكاسا لجو نفسي وفكري عام يغطي شريحة واسعة من الاسرائيليين.

نعود الى المؤلفين السبعة، فنراهم يردون سوء التدابير الى سبتمبر ١٩٧٠ "حيث قامت مصر -بالمساعدة الفعالة من الاتحاد السوفييتي- باستغلال وقف اطلاق النار الذي وضع حدا لحرب

الاستنزاف. فمنذ الليلة الاولى لوقف النار قدمت مصر ١٢ قاعدة صاروخية مضادة للطائرات، من طراز سام ٢ وسام ٣ باتجاه ضفة القناة الغربية. ومنذ ذلك اليوم وفي الايام التي تلته، باشرت، بمحاذاة القناة وبوتيرة متسارعة، في بناء جدار صاروخي كثيف غطى ايضا الضفة الشرقية لمسافة ٢٠-٣٠ كم، ومنع سلاح الطيران الاسرائيلي من القيام بعملية فعالة في هذه المنطقة، منذ اواخر ١٩٧٠ وبمرور الزمن كان من الجدير بان يكون واضحا، ان سلاح الجو الاسرائيلي الذي ضمن النجاح الخاطف للجيش الاسرائيلي، في حرب الايام الستة، خلال الساعتين الاوليين من ٥ حزيران ١٩٦٧ -حيث دمر معظم سلاح الجو المصري في قواعده على الارض- لم يعد قادرا في اكتوبر ١٩٧٣، على القيام بدور حاسم في وقف الهجوم المصري وصده، بسبب كثافة الصواريخ المصرية. "على سلاح الجو الاسرائيلي ان يحارب بضراوة ضد قواعد الصواريخ على الجبهتين"- هذا ما ورد في تقرير وزير الدفاع موشيه ديان الى رئيسة الحكومة السيدة غولدة مئير، فى ثاني ايام الحرب".

من ثم يعود المؤلفون الى توجيه النقد لموقف القيادة الاسرائيلية من التحذيرات المتتالية بقرب نشوب الحرب، ويزعمون أن خطر الحرب اخذ يتضح منذ نيسان وايار ١٩٧٣ وانه كان اكيدا قبل نشوب الحرب بعشرة ايام كاملة.

ويقدم المؤلفون سلسلة من مصادر المعلومات المتجمعة عن قرب نشوب الحرب، ويدهش المرء حين يرى ان مصدرا اساسيا لهذه المعلومات هو الصحف العربية التي تنشر برعونة واضحة معلومات تعتبر في الدول الواعية معلومات عسكرية امنية سرية للغاية.

وعلى سبيل المثال، نسوق ما اخذته الدوائر المهتمة بالامر في اسرائيل، عن جريدة "النهار" البيروتية التى نشرت في ٢٨ ايار ١٩٧٣ ان قوات عسكرية مصرية تنقل ليلا ونهارا من منطقة القاهرة الى منطقة القناة وان حالة الاستعداد القصوى اعلنت فى الجيش المصري، لامكانية القيام بتنفيذ قرار مصيري، قد يسلم للجيش فى كل لحظة!

نحن نرى ان مثل هذا النبأ الذي نشرته "النهار" يصلح نصا كاملا لبرقية يوجهها جاسوس اسرائيلي او امريكي من القاهرة الى مقر قيادته.

ويلاحظ القارىء ان بعض الصحف العربية تنشر انباء مثيرة وبارزة عن زيارات وتحركات "سرية" على غاية من الخطورة.. حرية صحافة؟ وهل يعني ذلك ان تكون الصحافة سائبة على هواها وعلى هوى مموليها السريين والعلنيين؟

هنا يطرح السؤال نفسه: ما دامت الاوساط المسؤولة فى اسرائيل قد حظيت بكل المعلومات المطلوبة، فلماذا لم تقم -كعادتها- بشن ما درجت على تسميته حربا رادعة.

يرد المؤلفون على هذا السؤال، بانه منذ تلك الايام (نيسان-ايار ٧٣) كانت تسود اسرائيل نظرية سياسية وعسكرية يتزعمها موشيه ديان، هى النظرية القائلة بان من غير المعقول ان يقوم المصريون بشن حرب شاملة وواسعة، وانهم سيحاولون عبور القناة فى موقع محدد بهدف اقامة جسر مؤقت على ارض سيناء. وكانت قيادة الجيش الاسرائيلي والوزراء الذين يتمتعون بحق معالجة الامور الامنية، على اقتناع بان الجيش الاسرائيلي سيكون قادرا على "نفض" القوات المصرية المهاجمة وابعادها عبر القناة - حتى قبل ان تتمكن

الدول الكبرى من التدخل وفرض وقف اطلاق النار. بواسطة مجلس الامن.

ويرى المؤلفون ان القيادة الاسرائيلية كانت ضحية لحرب نفسية عربية منظمة بدقة شديدة فبقدر ما كان السادات يتحدث عن قرب المعركة ويحدد مواعيدها، بقدر ما كان المسؤولون الاسرائيليون يقللون من اهتمامهم بتصريحاته، وكان الرد الاسرائيلي الرسمي دائما: "هذا غير جدي. لن يحدث شيء" .. و "تنبغي الاشارة الى ان الاستخبارات الامريكية (سى. آى. اى) تأثرت بشكل حاسم، بتقديرات قسم الاستعلامات العسكرية الاسرائيلي. وبعد حرب الشرق الاوسط بفترة قصيرة، طرد ضابطان ومدني واحد على الاقل من مناصب عليا في الاستخبارات الامريكية، بسبب تقديراتهم الخاطئة. وقد نجمت اخطاؤهم -الى مدى بعيد- عن التقديرات الخاطئة لدى زملائهم الاسرائيليين".

عشية الحرب، وفي يوم الجمعة الخامس من اكتوبر، على وجه التحديد، دعت غولدة مئير "برلمانها الحربي" الى جلسة طارئة حضرها بعض الوزراء، وتأخر بعضهم، وتغيب آخرون.. ولم يشترك بنحاس سبير لانهم "لم يعثروا عليه فى ذلك اليوم، وقد علق على ذلك بعد الحرب بقوله: لم يعثروا علي لانني صغير الحجم!"

ومهما كان من أمر، فقد بدأ الاستعداد وألغيت الاذونات واعلنت حالة الاستعداد القصوى في سلاح الطيران.. وفي منطقة الجنوب صدرت اوامر الاستعداد الاخيرة التى اخذت بالحسبان امكانية بدء

حين وصل الجنرال غونين الى مقر قيادته في الجنوب تلقى معلومات اضافية تؤكد قرب نشوب الحرب الى جانب التقرير الذي في يديه والقائل بان الحرب تبدأ فى السادسة مساء بعبور الجيش المصري على طول القناة بعد قصف مدفعي وجوي ثقيل. واتصل الجنرال غونين لاسلكيا بالجنرال البرت ماندلر قائد الكتائب المدرعة وقال له " من الضروري البدء في تحريك الدبابات المدرعة نحو الخط الامامي، فحتى، تصل يكون المساء قد هبط ورد عليه الجنرال مندلر: "ضروري حتما، لقد آن الاوان، انهم يقصفوننى".

وأنهى الجنرال غونين المكالمة: "ما دام الامر كذلك، فبالتأكيد، من الضروري ان تتحرك".

لقد بدأ الهجوم ..

ظل الكارثة

في الفصل السابق قدم الينا المؤلفون احتجاجهم على "الفساد" من خلال عرض الموقف الاسرائيلي الاستخفافي تجاه خطورة الاحداث القادمة، ومن خلال تقديم نظرية ديان حول "نفض" الهجوم المصري "المحدود" ... وفي هذا الفصل صورة عن حالة الانهيار في ساعات الحرب الاولى، والتي قوبلت بعدم التصديق والتساؤل: كيف حدث ذلك؟!

"الوضع ميئوس منه!" .. الوضع ميئوس منه! هكذا كانت تتوالى

الصرخات في اجهزة اللاسلكي الاسرائيلي .. ومن احد الاجهزة نوى الجنرال ابراهام (البرت) مندلر قائد المدرعات في سيناء: "عندنا ثغرات كبيرة في القطاع الاوسط" .. "فيْ القطاع الجنوبي تهاجمنا عشرات الدبابات" .. "ما لم ترسلوا الى الطيران فان القطاعين الجنوبي والاوسط سيسقطان" .. "٢٠٠ دبابة على الاقل تتدفق في الوسط وفي الجنوب. يجب انزال الطيران بسرعة. ربما تتمكن الطائرات من سد الطريق" .. وكان قائد احد المواقع يهتف في جهاز اللاسلكي "تعالوا خذونا!"..

وماذا عن الجبهة السورية؟ يلخص المؤلفون الوضع هناك بقولهم: "ابتداء من صباح يوم الاحد ٧ اكتوبر، كان الوضع فى الجبهة الشمالية، على طول خط وقف النار فى هضبة الجولان، صعبا وحرجا وخطيرا، اكثر بكثير .. (منه على الجبهة المصرية-س.أ)".

على الجبهة السورية "تقدمت الدبابات السورية بسرعة الى مدى أصابة محطة الضخ لمشروع المياه القطري، قلب شريان الحياة الرئيسي لدولة اسرائيل، شمالي كيبوتس جينوسار"

ويتحدث المؤلفون عن رأس سهم من الدبابات السورية لم تبق بينه وبين اسرائيل سوى قوة منهكة متلاشية من الدبابات الاسرائيلية. وان السوريين كانوا يحاربون حتى بعد غروب الشمس لان دباباتهم كانت مزودة بالاشعة فوق البنفسجية التى تتيح لهم امكانية القتال الليلي.

ويذهب المؤلفون السبعة الى أبعد من ذلك فيقولون أن اسرائيل كانت عرضة لهزيمة عسكرية ساحقة "لا تعنى الاحتلال وفقدان الاستقلال فحسب، بل تعنى محو الشعب ودولته من على الخريطة"..

في مقدمة الكتاب، الوثيقة، اعترف المؤلفون بان بعضا منهم أسهموا في نشر "الاستخفاف بالعدو" و "الثقة بالنفس المبالغ بها" ورأوا في ذلك اسهاما في "الفساد" العام الذي أدى الى الحرب ونتائجها.

وللاسف الشديد فانهم لم يستخلصوا النتائج الملائمة، بل راحوا حتى في كتابهم هذا "يسهمون" في نشر المواقف الخاطئة مثل زعمهم السابق بان الهزيمة العسكرية "تعنى محو الشعب ودولته من على الخريطة".. انهم يروجون هنا ايضا الزعم بان العرب يسعون "لمحو الشعب ودولته من على الخارطة"، ولكنهم لا يقدمون تفسيرا لاحجام الجيش السوري عن ضرب محطة الضخ فى مشروع المياه القطري "قلب شريان الحياة الرئيسي لدولة اسرائيل" رغم كونه قادرًا على ذلك!!

ويشير المؤلفون الى الهوة السحيقة التي كانت قائمة فى ٧ اكتوبر وبعده بين الواقع المر على ارض المعركة وبين عناوين الصحف وتقاريرها المخالفة لحقيقة الامر وصورة الحقيقة. فصحيفة "هأرتس" تقول فى المنشيت الرئيسي "الجيش الاسرائيلي يوقف العدو ويستعد للانتقال الى الهجوم المضاد" .. ويقول منشيت "دافار" "الجيش الاسرائيلي يوقف العبور الى سيناء".

لكن كيف كان انذاك شعور الجنرال اورى بن ارى مساعد قائد المنطقة الجنوبية:

"كان شعورا مصيريا فظيعا. كان شعورا باننا نتضاءل، وأنهم، المصريين، يتضخمون. كل فشل من جانبنا يفتح أمامهم قطعة اخرى من الطريق الى تل ابيب"..

ولعل حالة الرعب والانهيار الشديد، تتخذ لها تعبيرا اوضح واشد قسوة في خاتمة هذا الفصل:

"حين عاد ديان من جولته فى الجبهة الجنوبية، كان من الصعب القول بانه حمل معه تشجيعا كبيرا. هو ايضا كان عاجزا عن تشجيع اولئك الذين قابلهم في تلك الساعات. لقد قابل رئيسة الحكومة غولدة مئير. كانت غولدة قد حصلت على تلخيص اولى لخسائر الجيش الاسرائيلي فى اليوم الاول من الحرب: حولي ٥٠٠ قتيل، حولي ١٠٠٠ جريح، وعشرات الاسرى.

كان يكفي أن نقارن هذه الارقام بارقام ضحايا اسرائيل في حروبها السابقة، حتى تتكون لدينا فكرة عن حجم الكارثة. في حرب سيناء، عام ١٩٥٦، خلال خمسة أيام من القتال، فقد الجيش الاسرائيلي قرابة ١٨٠ من جنوده. وسقط فى ايدي المصريين أنذاك اسير واحد، فقط طيار. في حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ سقط في جبهتي مصر وسوريا معا حوالي ٨٥٠ جنديا خلال ستة ايام من القتال. وقع في ايدي المصريين انذاك ١٤ اسيرا فحسب. وفي لهجة صبرية (لهجة اليهود المولودين فى البلاد-س.أ)، ربما لم تفهم غولدة مغزاها، قال لها موشيه ديان: "اننا فاقدون البيت الثالث".

كانت تلك رؤية مرعبة عبرت جيدا عن وضع دولة اسرائيل فى ٧ اكتوبر. في غضون اقل من ٢٤ ساعة انقلبت اسرائيل من دولة عسكرية كبرى، حتى بالمقاييس الدولية، من دولة اصبح جيشها مثلا ونموذجا لجيوش العالم، من دولة حقق جيشها قبل ست سنوات فقط، اكثر الانتصارات حسما وبريقا في تاريخ الحروب الحديثة، من دولة "لم يكن وضعها العسكري في أي وقت مضى، احسن مما هو عليه

اليوم" -حسب تصريحات قادتها- الى دولة تحارب بصرير الاسنان من اجل مجرد وجودها، حيث يخيم عليها ظل الفناء.

كيف كان من الممكن ان يحدث تحول حاد ومذهل فى ساعات قليلة الى هذا الحد؟".

(٣)
يوم الغفران الاسود!

على امتداد ثلاثة فصول، تحتل ٦٦ صفحة من الكتاب يحاول المؤلفون انقاذ ما يمكن انقاذه من سمعة "جيش الدفاع الاسرائيلي"، وذلك عن طريق ابراز البطولات الفردية وانتشالها من اعماق دخان الهزيمة العامة. هذه المحاولة تعيد الى الذهن تلك الحكايات التى شاعت في وسطنا العربي بعد نكسة حزيران ١٩٦٧، عن بطولات فردية سجلها طيارون وجنود وطواقم دبابات من مختلف الجيوش العربية.

غير ان هذه الفصول الثلاثة لا تخلو من أمور ينبغي على القارىء العربي الالمام بها.

على طول ١٦٠كم في الجنوب و٧٥كم في الشمال كانت تشتعل معارك لم يسبق لها مثيل.. القاذفات المصرية تغير اربع مرات على المطار الاسرائيلي ومراكز الاتصال اللاسلكي في شرم الشيخ. وفي الوقت نفسه تغير طائرات مصرية اخرى على مدينة النفط ابو روديس، لكنها كانت حذرة من اصابة آبار النفط ومحطة الضخ وكانت

ضرباتها موجهة مباشرة الى المباني الاسرائيلية .. وفي احدى البنايات سقط ستة اسرائيليين من عاملي الادارة المدنية للمنطقة. في الرابع والخامس من اكتوبر كانت قد اتضحت دلائل في الجانب العربي تشير الى هجوم متوقع، ولذلك اخليت المنطقة من المدنيين الاسرائيليين الذين كانت الوف منهم تتدفق الى هناك في نزهات سياحية ..

وفي الشمال حطت طائرات الهليكوبتر السورية فى سهل مجاور لموقع جبل الشيخ.. بعد لحظات كان عشرات من رجال الكوماندو "المعاوير" بثيابهم المرقطة يغيرون على اخطر المواقع الاسرائيلية فى الشمال. تراجع الجنود الاسرائيليون من مواقع القذف الامامية الى داخل المعقل الذى كانوا يعتبرونه غير قابل للسقوط فقد كان مغطى بطبقات كثيفة من صخور الصوان تخللتها فقط انابيب التهوية. وتحت هذه الطبقات المستعصية على قنابل الطائرات وقذائف المدفعية، كانت بناية من ثلاثة طوابق تحت الارض، جدرانها من الاسمنت المسلح السميك وابوابها من الفولاذ.

كان الجنود الاسرائيليون يتوقعون ان يخف لنجدتهم سلاح الطيران وامدادات عسكرية اخرى لكنهم لم يتوقعوا أن تكون هذه حربا طويلة بالنسبة للحروب السابقة، ولم يتوقعوا أن ترتجف الارض من حولهم وتتساقط كتل الاسمنت المسلح ليتدفق من ثغراتها الدخان .. والجنود السوريون..

صفحات كتاب "الفساد" اشبه باللقطات السينمائية المتنقلة من موقع الى آخر بصورة غير متوقعة.. وها نحن نعود مع المؤلفين الى لقطة اخرى على جبهة السويس على بعد ٦٥٠كم في خط هوائي من

جبل الشيخ..

الوحدات المصرية الصغيرة التي عبرت القناة سرا لاتلاف شبكة انابيب النفط المعدة في الجانب الاسرائيلي لاشعال القناة، عادت الى قيادتها بصورة دقيقة عن مدى الاستعداد في خط بار ليف، الامر الذى يسر على القيادة المصرية مهمة تقدير الوضع المتوقع. عوضا عن ذلك فقد اعتمدت القيادة المصرية على تقديرات اساسية منها إن الليلة التي تلي بدء الهجوم يجب ان تكون ليلة مقمرة بحيث يستفيد العابرون من ضوء البدر في الساعات الحرجة. وقد تم فحص المعطيات عن سرعة التيار في قناة السويس حتى يتناسب مع حركة العبور بالاضافة الى ان يوم الغفران هو يوم مناسب للقيام بالعملية.

بالنسبة لسلاح الطيران الاسرائيلي كانت هناك مفاجاة غير سعيدة. ففي مقر احد اسراب الفانتوم لعب الطيارون الورق (الشدة) حتى الرابعة صباحا. في الساعة السادسة واربعين دقيقة صلصلت اجراس التلفون الى جانب اسرتهم فهرعوا الى غرفة التعليمات ثم صدر الامر "كل واحد يمسك طائرة!" .. في الجو حلقت الدوريات بانتظار الهجوم الجوي العربي .. كانوا يعتقدون بان الطيران العربي سيغير على المطارات الاسرائيلية، وبينما كانوا ينتظرونه كان يشن غاراته المتواصلة على مقرات القيادة في الجبهات وعلى الاهداف الاخرى.

على الارض كانت مفاجاة اخرى يرويها أحد جنود المدرعات الاسرائيلية:

علمونا في المدرسة ان الدبابة هي المشكلة. دبابة العدو هي الهدف الاول. المدافع المضادة للدبابات هي الهدف الثاني. وبعد ذلك تطلق

النار على المشاة... نظرت حولي ورأيت كتلا مشتعلة تتراقص في الجو وتنطلق نحو دباباتنا. لم أفهم ماذا يجري. فيما بعد فهمت أن تلك صواريخ وأن المشاة الذين يواجهوننا لا يقلون خطورة عن الدبابات، التي لم نرها بعد ابدا، في مدرسة المدرعات سمعت عن كل الصواريخ لكنهم لم يضعوا ابدا هذه الاسلحة في مقدمة الاهتمام. كان هذا بالنسبة إلي مفاجاة تامة.. كنا مذهولين. بكى المدفعي ونحن لم نفهم بعد ماذا يجري. لذنا بتلة رملية. طيلة الوقت فكرت في هذا الصاروخ الغامض حتى ذلك الوقت لم أعرف اسمه. حتى ذلك الوقت لم اعرف انه حين يخترق الدبابة فانه يخلق موجة من حرارة تزيد على الف درجة سلزيوس، فيدمر جميع أجهزة الدبابة وقد يحرق كل الموجودين فيها. دبابات أخرى من الفرقة كانت اقل حظا منا. استرقنا النظر عبر تل الرمل ورأينا كتلا ملتهبة. تلك كانت مرة دبابات الفرقة.

في الثانية وخمس دقائق من نهار السادس من أكتوبر كان صوت المذيع من اذاعة القاهرة يعلن مكررا: الساعة الان الثانية وخمس دقائق .. الساعة الان الثانية وخمس دقائق ..

كانت تلك كلمة السر .. وبدأ العبور .. ويصف المؤلفون فشل الهجوم الاسرائيلي المضاد الذي كان منوطا به صد عملية العبور.. ويضيفون أن الجنود المصريين كانوا يتركون زوارق المطاط المصابة بالنيران الاسرائيلية وهي في عرض القناة، لكنهم يواصلون الهجوم سباحة، شرقا نحو الضفة المحتلة. كان الجنود المصريون مزودين بعتاد كبير: أدوات حفر، كمامات غاز، مطرات، سكاكين، اغذية، قنابل يدوية، متفجرات، وذخيرة.

فوق كل ذلك كانوا يحملون حقائب تشبه حقيبة جيمس بوند.. في داخل تلك الحقائب كانت صواريخ "ساجر" التي لعبت دورا اساسيا في المعركة..

الدماغ ليس كافيا.. هناك حاجة للعقل!

في أكثر من موضع يصرخ المؤلفون وجعا: كيف حدث أن تجمعت لدى القيادة الاسرائيلية كل هذه المعلومات والدلائل، ولم تستخلص النتائج المؤكدة لنشوب الحرب؟

غير أن الوقائع ومعطيات المؤلفين انفسهم تؤكد شيئا آخر، هو أن الخطأ الكبير كامن في سوء تقدير القيادة الاسرائيلية لمدى التحول الايجابي الذى طرأ على الجيوش العربية، والاقتناع التام بان العرب لن يجرؤوا على خوض الحرب .. هذا ما أسماه الجنرال اسحق رابين "الحاجز النفسي" الذي يعاني منه ديان والعزار وشركاؤهما في القيادة.

حوالي ٥٠ ساعة قبل نشوب الحرب سأل أحد المراسلين العسكريين الجنرال البرت: "وماذا يحدث اذا قام المصريون غدا صباحا بعبور القناة؟" فرد عليه الجنرال البرت: " سنوقفهم بقواتنا على خط المياه، وفي غضون وقت لا يذكر، تدور الحرب في الجانب الاخر؟".

ينتقد المؤلفون الرقابة العسكرية التى كانت "تحرر" المعلومات الصحفية وتعمل مقصها الرهيب في الانباء المطروحة أمامها.. "وفي

دولة اسرائيل استعملت الرقابة العسكرية أكثر من مرة في الماضي، كوسيلة سياسية" -ويرى المؤلفون أن الحزب الحاكم كان في حرج ازاء قرب موعد الانتخابات العامة في ٣١ اكتوبر. فاحد الخطوط الاساسية التي بنى عليها هذا الحزب دعايته، يقوم على أن الامن مستتب على كافة الجبهات وانه لا وجود لخطر نشوب الحرب من جديد، وهذا يثبت صحة السياسة الرسمية!

ثم ينتقل المؤلفون الى جهاز الاستخبارات الاسرائيلي، فرغم الهالة المحيطة بهذا الجهاز ورغم الرأى العام القائل بانه افضل اجهزة الاستخبارات في العالم، فقد وقع في عدة مفاجات ازاء التحركات العربية سابقا ولاحقا، ولا سيما عمليات الفدائيين الفلسطينيين. فاطلاق النار على تسادوك اوفير وإصابته في بروكسل وصفته صحيفة "لانوفيل اوبزرفتور" الفرنسية (١٨-٩-٧٢) بأنه حادث خطير، وقد تعتبره الاستخبارات الاسرائيلية اخطر من مجزرة ميونيخ لانه يدل على ان الفلسطينيين يعملون فى مجالين: مجال العمليات الاستعراضية كعملية ميونيخ ومجال العمليات الاستعلامية السرية كضرب العملاء والجواسيس الاسرائيليين العاملين لمصلحة "المؤسسة" (جهاز الاستخبارات الاسرائيلي) .. الموساد.

وتضيف الصحيفة الفرنسية ان حادث بروكسل ومصرع باروخ كوهين في مدريد كان ضربة جدية لاسطورة مناعة الاستخبارات الاسرائيلية ..

(٤)
"لاجئون" الى الشرق
"عقدة" الجنرال شارون كلفت غاليا..!

غريب امرها "الكلمة" .. هذا المخلوق المتشكل المتنوع المتغير، المحدود واللامحدود فى آن. فكلمة "لاجئون" حين تقرن بالشعب العربي الفلسطيني تتفجر منها تداعيات واستطرادات كلها حب وألم وغضب .. والان حاولوا ان تتبعوا مولدات هذه الكلمة حين تقرن بجنود الجيش الاسرائيلي!

"لاجئون" .. بهذه الكلمة وصف مؤلفو "الفساد" جنود الجيش الاسرائيلي الراحلين شرقا عن مواقعهم واستحكاماتهم على ضفة السويس ابان عملية العبور الكبير..

جنود كثيرون بقوا معزولين ومطوقين في استحكاماتهم وتحصيناتهم على الجبهة الجنوبية. في هذه الحرب اضطر الجيش الاسرائيلي للتنازل عن احدى سماته التي يفخر بها كثيرا، سمة انقاذ الجميع وعدم التخلي حتى عن الجثث في ساعات الانسحاب الحرجة .. لقد اصبح ذلك تقليدا ادخله الى الجيش الجنرال اريئيل (اريك) شارون، وله مع هذا التقليد قصة قديمة:

في عام ١٩٤٨ كان اريك شارون ضابطاً شابا في القوات الاسرائيلية واشترك في معركة ضارية على موقع شرطة اللطرون. في تلك المعركة سقط المئات من الجنود الاسرائيليين ووقعت الوحدة التي يقودها شارون في الحصار .. وأصيب برصاصة اخترقت ساقه وتوغلت في بطنه، ثم صدر امر الانسحاب وترك الجرحى العاجزين عن الحركة (وبينهم شارون) ولم ينج شارون الا باعجوبة فقد حمله

احد زملائه وخبأه فلم يقتل او يقع في الاسر.. ومنذ ذلك الوقت اصبح الجرحى والمحاصرون "عقدة" شارون .. وفيما بعد، حين اصبح جنرالا بارزا جعل مهمة انقاذ المعزولين والجرحى حجرا اساسيا في عمارة الجيش الاسرائيلي.. وبالفعل اصبح ذلك تقليدا - كما اسلفنا ..

في هذه الحرب ايضا حاولت القيادة الاسرائيلية - لا سيما الجنرال شارون بالذات - المحافظة على التقليد اياه ولكن .. "اتضح فيما بعد، للقيادة، ان ثمن محاولات الانقاذ هذه عال جدا. فحول احد المواقع التي حاولوا خرق الطوق المحيط بها. ترك الجيش الاسرائيلي ٤٠ دبابة ومجنزرة. وقد اصيبت قوة اكبر في محاولة لانقاذ حوالي ٣٠ محاربا محاصرين"..

عقب خمود المعارك كان قائد أحدى الكتائب يتجول مع بعض الاباء الثكلى على خط الجبهة ليطلعهم على المواقع التي سقط فيها أبناؤهم. وحين رأى أحد الاباء دبابة ابنه المصابة سأل ذلك القائد: هل فعلتم كل شيء من اجل ..؟ "اسف" أجاب قائد الكتيبة "محاولة انقاذ ابنك واصدقائه كلفتنا خمسة عشر قتيلا" ..

ويعرب المؤلفون عن دهشتهم من ان بعض القادة لم يفهموا أن هذه الحرب تختلف عن سابقاتها الا بعد سبعة أيام من القتال المرير الذي أنهكت فيه قوات اسرائيلية كبيرة .. لقد ظن بعض القادة أن هذه ايضا ستكون حرب أيام ستة .. "تكفي ضربة واحدة على تنكة وستتطاير العصافير في رعب" .. ولكن هجماتهم المضادة كانت أشبه "بنطح الحائط" ..

لا، لم تكن هذه الحرب شبيهة بسابقاتها .. ففي بعض المعارك التي يصفها المؤلفون بالحروب الصغيرة حدث ان "تصادمت قوات

مدرعة من المعسكرين بكميات يشك في ان يكون لها شبيه، في حلبة صغيرة كهذه، في تاريخ حروب العالم. أحيانا اصطدمت ٥٠ دبابة ب ٥٠ دبابة، في حالات كثيرة - ١٠٠ دبابة في مواجهة ١٠٠ دبابة". وحدث في ساعات التدفق ان تصادمت مئات الدبابات بمئات الدبابات وكانت المعارك كثيفة لدرجة تلاصق المدفع بالمدفع. وقد لا نجد شبيها لهذه المعارك في معارك الدبابات الجبارة في الحرب العالمية الثانية في شمال افريقيا، لاسيما وأن الفرق كبير بين اسلحة ودبابات اليوم واسلحة ودبابات ذلك اليوم .. "كانت هذه ايضا الحرب الاولى التي تنسحب فيها الدبابات الاسرائيلية الى الوراء. بقيت في مناطق العدو دبابات في داخلها قتلى وجرحى لم يكن من المستطاع انقاذهم. دبابات اخرى اصابتها الصواريخ فاشتعلت بالنار، ورجال الطواقم الذين قفزوا منها قتلوا او سقطوا في ايدي المشاة المصريين المغيرين"..

سقط خط بارليف - بقي بارليف!

خط زيغفريد .. خط ماجينو .. خط بارليف .. ثم خطب جلل .. فمنذ تم العبور المصري الكبير الى ضفة السويس الشرقية انهارت اسطورة خط بارليف الذي اصبح رمزا لجبروت العسكرية الاسرائيلية ازاء "الاحباط" العربي المزمن ..

وبعد الحرب، حين سأل الصحفيون الجنرال بارليف عن رأيه فيما اذا كان الخط الذي يحمل اسمه قد نجح في الامتحان، أجاب: "خط بارليف". أن هذه التسمية من ابتكار الصحافة؟" جاءت أجابة بارليف هذه نتيجة للنهاية التي آل اليها ذلك الخط، ذلك الرمز المنهار

استمر العمل في بناء وتطوير خط بارليف قرابة الثلاث سنوات وكلف دافع الضرائب الاسرائيلي حوالي مليارديين من الليرات وقد ادخلت عليه تحسينات واجهزة جعلته عالما جوفيا مكتملا قائما بذاته حتى اصبح يتمتع بلقب "الخط الذي لا يمكن تجاوزه ولا يمكن دخوله" ..

غير أن القيادة العسكرية الاسرائيلية لم تجمع على موقف موحد من هذه المسألة، ففي مواجهة نظرية بارليف القائلة ببناء الخط كانت هناك نظريتان مختلفتان ومتناقضتان .. احداهما تدعو الى "السيطرة من بعد".. والاخرى تدعو الى اسلوب "الخط المتنقل"..

وكانت الانتقادات الموجهة لخط بارليف مركزه في نقاط اساسية (من وجهة نظر المعارضين):

"* تحصينات خط بارليف في مدى المدافع المصرية. والمدفعية هي اقوى سلاح مصري ..

* مجرد وجود خط بارليف يشكل اغراء مستمرا للمصريين لتجديد اطلاق النار ولهجمات المغاوير (الكوماندو).

* كان لا بد من تشغيل سلاح الجو الاسرائيلي لاسكات المدافع المصرية، الامر الذي أدى الى التطور المنطوي على الكارثة، الا وهو الغارات على العمق المصري، مما أدى الى ظهور بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات ..

* المبالغ الطائلة التي وضعت في الخط، كانت على حساب الاموال التي كان من الممكن توظيفها في تطوير وشراء ادوات حربية

اخرى، وايضا، على حساب الموارد المكرسة لتطور الدولة الاجتماعي والاقتصادي".

بعد توقف القتال عاد الجنرال المتقاعد متتياهو بيلد فكرر اتهامه لضباط القيادة العامة "بعدم الاستقامة المهنية".. بالتنازل عن مواقفهم العسكرية والخنوع لارادة السياسيين. واتهم بيلد المسؤولين عن الشؤون الامنية في اسرائيل "بعدم الاخلاص لواجباتهم".. واضاف الجنرال الغاضب: "بالمبلغ الذي اقيم به خط التحصينات، كان من الممكن شراء ١٥٠٠ دبابة أضافية بكامل عتادها او ١٠٠ طائرة اخرى من المستوى الاول او عدة ايام اخرى من الذخائر لكافة الاحتياجات العسكرية".

يوم سرح الجنرال بارليف من الجيش كتبت احدى الصحف تحية للجنرال قالت فيها: "ذهب بارليف، ولكن الخط باق".. لقد كانت الثقة كبيرة لدى أجهزة الدولة وجماهير تلك الاجهزة، بأن خط بارليف هو بالفعل غير قابل للتجاوز غير قابل للدخول".. أما اليوم وبعد ضربة رمضان فيصح ان ينعكس القول: "ذهب خط بارليف، وبقي بارليف!"..

ثم.. "لاجئون" الى الشرق .. وغريب أمر الكلمة ..

(٥)
الـفـــخ

الفخ.. نفس الفخ الذي نصبته اسرائيل لمصر في عدوان ١٩٦٧، هو الذي وقعت فيه اسرائيل في حرب اكتوبر.. هكذا يلخص المؤلفون كيفية انفجار الحرب الاخيرة. وهم يستشهدون في ذلك بتصريح صحفي كان الجنرال سعد الدين الشاذلي قد ادلى به بعد اعلان وقف اطلاق النار: "لم يخطر ببالي أبدا إن العدو يمكن التغرير به الى هذا الحد"..

في الايام التي سبقت ٥ حزيران اصدر الجنرال ديان امرا الى قادة الوحدات العسكرية الاسرائيلية بارسال عدد كبير من الجنود في عطلة منزلية.. وابتلعت الاستخبارات المصرية هذا الطعم، وقررت القيادة بأن حالة الاستعداد في الجيش الاسرائيلي قد ضعفت وان قسما كبيرا من الوحدات الاسرائيلية اعيد إلى البيت..

هذا "الطعم" نفسه ابتلعته الاستخبارات الاسرائيلية، غير ان عملية التغرير المصرية والسورية هذه المرة كانت طويلة ودقيقة ومحبوكة للغاية.. ويرى المؤلفون ان السوفييت كانوا وراء خطة التضليل العربية.

ويرى المؤلفون ان العرب تبنوا "الاسلوب السوفيتي" في "الحرب النفسية" القائم على نشر انباء بعيدة ومناقضة لمجرى الخطة .. اما لماذا يسمون ذلك اسلوبا سوفيتيا بالذات، فالعلم عندهم وعند الله.. ويزعمون ايضا ان الاقمار الاصطناعية السوفيتية كانت تتجسس على تحركات الجيش الاسرائيلي، ولم يقولوا شيئا عن الاقمار الاصطناعية

الامريكية، ولا عن ليبرتي، سيئة الذكر، وشقيقاتها ..

ثم يستعرض المؤلفون سلسلة من الانباء الصحفية العربية والعالمية التي اعطت صورة مزيفة تماما، عن واقع الاستعداد العسكري في الجانب العربي ..

في ١١-١٢-٧٢ نشرت وكالة "يو.بي" في بروكسل نبأ بهذا المعنى:

"فقط ٤٠٪ من السلاح و٦٠٪ من الطائرات المقاتلة المصرية، في حالة صالحة للاستعمال - وقد ورد ذلك في تقرير سري اعده سلاح الجو المصري ووزع في مصر بنسخ معدودة".

ونشرت صحيفة "فايننشل تايمز" (١٦-١٢-٧٢):

"الجيش المصري غير مستعد، بتاتا، للقتال، رغم ان بعض الوحدات تطمح لمحاربة اسرائيل".

وتحت عنوان "الفساد يستفحل. لدى الجيش المصري ذخيرة لاسبوع واحد فقط" نشرت صحيفة "لا ستامبا" الايطالية مقالا بهذه الروح في ٢٧-١-٧٢.

ونشرت صحيفة "كورييرا ديلاسيرا" الايطالية نبأ يقول: "هناك مصادر عسكرية مصرية تعترف علانية ان مصر ينقصها البنزين وقطع الغيار. هناك طيار واحد فقط لكل طائرتين. الطائرات الحديثة الاسرع من الصوت ملقاة مثل حجارة جامدة. في الاشهر الخمسة الاخيرة تحطمت في التدريبات ثلاثون طائرة أسرع من الصوت".

وحتى تكتمل الصورة، نشرت صحيفة "فيغارو" الفرنسية في ٨-٢-٧٢: "فضائح، مرارة، واستلاب، في مصر. ضباط الوحدات المرابطة على قناة السويس يمضون في الجبهة يومين فقط في

الاسبوع، وبقيةالوقت يمضونه في القاهرة، اعتمادا على اذونات مزيفة. اشتركت في جنازة جنرال مصري، اشترك فيها عشرات الضباط الكبار. ولا واحد منهم سار حسب الايقاع. كثيرون منهم انتعلوا احذية الرياضة.. وقال لي ملحق عسكري اجنبي: لم يكن هذا الجيش في اي وقت مضى اكثر مذلة. لم يعد لديه ناصر ولا خبراء سوفييت، لم تعد فيه روح".

في نيسان ١٩٧٣ كتبت صحيفة "لاكسبرس" الفرنسية أن اسرائيل تمتحن استعداد الجيش المصري بصورة مستمرة وإن الاستنتاجات تقول إن مصر "اشبه بكيس فارغ" ..

وفي ٢-٩-٧٣ كتبت "لوموند" الفرنسية ان "كثيرين من ٥٠٠ - ٦٠٠ الف جندي مصري المرابطين على القناة لا يحاربون، وهم غير قادرين على القتال، بل انهم يقدمون خدمات فوضوية مختلفة.. والجنود الشباب الذين تم تجنيدهم مؤخرا في مصر غير اكفاء للسيطرة على العتاد السوفيتي"..

صحف أخرى كثيرة في اوروبا الغربية وفي امريكا أسهمت - غير عامدة - في نشر ستار كثيف من الدخان حول حقيقة ما يجري داخل القوات العربية المستعدة بلا كلل لخوض معركة التحرير.

الخدر اللذيذ الذي خلقه النصر العسكري الحزيراني في الاوساط الاسرائيلية الواسعة -على مختلف المستويات - وهذه «الخطة» الاعلامية التي عززت الشعور بالاطمئنان لدى حكام اسرائيل ولدى الشعب ايضا .. والغطرسة والاساطير الكثيرة عن "الجيش الذي لا يقهر" كل ذلك ترك أثره العسكري والسايكولوجي، على مجرى المعركة وعلى نتائجها.

وللحقيقة التاريخية، فان الهجوم الدعائي الاسرائيلي، أو "الحرب

النفسية" الاسرائيلية، والانجازات العلمية التي حققها الجيش الاسرائيلي في الحروب السابقة - رغم كل ملابسات تلك الحروب - أثرت أيضا في الجانب الآخر، في الجانب العربي .. لقد صرح الرئيس السادات ان مصر مستعدة للتضحية بمليون جندي من اجل التحرير، وقدر الجنرال أحمد اسماعيل علي والقيادة العسكرية في مصر ان ٢٥-٣٠ الف جندي قد يستشهدون في عملية العبور- وهذان التقديران يدللان على مدى الوهم الكامن - او الذي كان كامنا - في نفوس العرب ازاء هذا الشبح الغامض المدعو اسرائيل أو الجيش الاسرائيلي.

يشير المؤلفون الى قضية اخرى كانت مدار جدل في الاوساط العامة والرسمية على السواء، وهي قضية وقف اطلاق النار ..

من الذي طلب وقف اطلاق النار؟ اهم المصريون؟ ام الاسرائيليون؟ السوفييت ام الامريكيون؟

نعتقد انه كانت لدى جميع الاطراف اسباب كافية لطلب وقف اطلاق النار في اليوم الذي وقع فيه الامر .. فذخائر الاسرائيليين كانت تتضاءل وتتلاشى بسرعة، وهجماتهم المضادة لم تحقق اهدافها المرجوة -كما اعترف المؤلفون في فصل سابق- والدولتان العظميان غير معنيتين -كل من وجهة نظرها الخاصة- باستمرار التدهور.

غير ان المؤلفين ينسبون الى الدكتور كيسنجر انه روى لسفير امريكا في اسرائيل (بتاريخ ٢٢ اكتوبر) ان انور السادات اعتقد ان قوة اسرائيلية صغيرة اخترقت القناة واستمرار القتال كفيل بطردها، بينما اكتشفت الاقمار الاصطناعية السوفييتية ان القوة العابرة تشكل خطرا جديا لذلك فقد بادروا بطلب وقف اطلاق النار قبل تدهور

الموقف فى تلك الثغرة من الجبهة المصرية.

بالنسبة للتستر على تحركات الجيش المصري والتغرير بالاستخبارات الاسرائيلية، كانت المناورات الكبيرة" المتكررة فى الجانب المصري وسيلة لمنع الاسرائيليين من التمييز بين الحركة التدريبية والحركة العملية التي تمت في خطوة العبور..

إذن، فقد كانت عملية التغرير ونصب الفخ شاملة ومكتملة على غاية من الاتقان فى التخطيط والتنفيذ..

وفي نهاية القتال حدث شيء ذو دلالة.. روى احد الجنود الاسرائيليين الذين هزموا على موقع جبل الشيخ: "قالوا لنا ان هذه هي عيون اسرائيل".

غير ان العيون الحقيقية كانت قد ذهبت منذ وقت بعيد.. منذ نجحت سمفونية التغرير في ايقاع القيادة الاسرائيلية في الفخ.. الفخ نفسه الذى سقط فيه العرب قبل سنين طويلة جداً، جداً.. فى ذلك الخامس من ذلك الشهر حزيران من ذلك العام ١٩٦٧..

(٦)
العجل الذهبي

قلنا في ما سلف ان المؤلفين السبعة لم يخرجوا عن نطاق النظرة الذاتية الضيقة، الامر الذى حجب عنهم الابعاد المتعددة والعوامل الموضوعية المركبة التى تمخضت عن الزلزال الكبير في السادس من اكتوبر ١٩٧٣..

ولعل أهم ما يميز هذه الوثيقة التى نراجعها معا هو الافتقار الفاضح لفهم حركة التاريخ فهما علميا.. وهكذا يجهد المؤلفون

لتركيز الانظار على الاهمال والخلل والفساد على المستوى "الاداري"، ليخلقوا الانطباع بانه لولا هذه المسائل "الادارية" لكان مجرى الامور قد اختلف اختلافا كليا ومطلقا..

واضح اننا نرفض مثل هذا التوجه القاصر الضحل، غير اننا نواصل الرحلة مع اخواننا المؤلفين، آخذين ما نراه جوهريا في دلالته -ان لم يكن في نصه- طارحين الرتوش والاصباغ الكثيرة التي يستهدفون بها تجميل صورة لا حول للعطار فيها..

في صباح الخامس من اكتوبر اعلنت التعبئة العامة وتجمع الجنود في الاماكن المعدة لهم منتظرين سيارات النقل والباصات التى تحملهم الى الجبهة .. غير ان ساعات عديدة مرت قبل وصول وسائط النقل، رغم حرج الموقف وأهمية كل دقيقة بالنسبة لما يجري على خط الجبهة .. فيما بعد ادعى رجال شركات النقل ان سياراتهم كانت جاهزة وكان سائقوها يحتلون مقاعد القيادة خلال ساعتين فقط من بدء الانذار .. اذن فقد حدث خلل ما ولم يقم المسؤولون عن التنسيق بواجباتهم على الوجه الصحيح ..

كانت هناك قضية مركزية اخرى .. قضية شاحنات الدبابات. مئات الدبابات الاسرائيلية كانت جاهزة في مخازن الطوارىء. ومخازن الطوارىء تبعد مئات الكيلومترات عن الجبهة. ومن المفروض ان تنقل الدبابات الى الجبهة على متون الشاحنات الخاصة، وذلك لتوفير ساعات العمل لمحركات الدبابات ولتجنب الخلل الذى قد يصيبها في الطريق. عدد ساعات العمل لمحرك الدبابة محدود، وبعد ساعات معينة من العمل المتواصل يتوجب تغيير المحرك بمحرك جديد. كذلك فمحركات الدبابات تستهلك كميات كبيرة من الوقود.

لذا يبدأ تشغيل محرك الدبابة في الجبهة ذاتها، وليس في الطريق اليها.

في هذه الحرب حدث خلل ما.. فلدى بعض فرق المدرعات كان عدد الشاحنات اكبر من عدد الدبابات بينما عانت مخازن الطوارىء من نقص شديد في تلك الشاحنات..

بعض وحدات الدورية التى تعمل على سيارات الجيب، لم تجد في مخازن الطوارىء العدد المخصص لها من الجيبات، واتضح فيما بعد انه تم استعمال تلك السيارات لغايات اخرى. بعض الآليات القتالية وجدت معطوبة في مخازنها رغم انها كانت تبدو من الخارج مطلية ونظيفة وعلى اهبة الاستعداد. في بعض الحالات اهمل المسؤولون عن مخازن الطوارىء في مهماتهم فكان العتاد ناقصا، في حالات معدودة وجدت الآليات صدئة، وفي حالات اخرى تعطلت آليات مختلفة بعد كيلومترات معدودة. واحيانا لم يكن من الجائز الخروج الى الطريق بسبب نقص في المصابيح اليدوية او النواظير.

حين زار الجنرال امرون يريف احدى الوحدات على الجبهة قال في الم: "خجلت من النظر في وجوه الجنود.. كيف ارسلناهم الى الحرب !".

ويرد المؤلفون نشوء هذا الوضع "المخجل" الى سببين: "التنظيم الرديء من جهة، والانحطاط والقذارة من جهة اخرى".

في اكداس الكلام الغامرة نعثر من حين لآخر على لفتات عميقة يسجلها المؤلفون بجرأة واضحة .. فهم يعترفون بالانحلال الذى ساد المجتمع الاسرائيلي في اعقاب النصر العابر في عدوان ٥ حزيران ٦٧، ويعترفون باتساع الاستقطاب الاقتصادي: مزيد من الثراء، ازاء مزيد من الفقر.. وبالطبع فقد انعكس هذا الوضع على صفوف الجيش

وقيادته.

ويسعى المؤلفون للحصول على شيء من العزاء في قولهم ان الانحلال ظاهرة ملازمة تقريبا لكل جيش منتصر.. "وهكذا فقد نشأت في اسرائيل، لاول مرة في تاريخها، طبقة اجتماعية جديدة - طبقة الجنرالات".. "والجنرالات الذين احبوا ان يروا صورهم منشورة في الصحف والالبومات، لم يرتدعوا عن اى احتفال اجتماعي، حتى يظهروا فيه امام عيون الجمهور. اصبحوا نوعا من الكواكب الاجتماعية السيارة والبراقة، واصبحوا زينة لا يمكن الاستغناء عنها في اى حدث اجتماعي - حفلة كوكتيل، عرض مسرحي اول، او افتتاح معرض لوحات. اصبحوا زبائن دائميين في مطاعم اسرائيل الغالية. احد الجنرالات ذهب ابعد من ذلك، فقد اشترك في افتتاح علني لوكالة لمنتجات التجميل ...".

كانت هناك منافسة غير معلنة بين الصالونات الاجتماعية التل أبيبية في الحصول على أفضل الجنرالات وأكثرهم عددا ولينفجر الحساد غيظاً. اصبح الجنرالات أشبه بفتيان الملذات أو "بلاى بويز" بالتعبير الشهير وقد تبنى اصحاب الملايين وأثرياء الحرب من شاءوا من الجنرالات والعكس أيضا صحيح وتمكن بعض هؤلاء الاثرياء من الاطلاع على اسرار عسكرية كانت محظورة على البشر العاديين وقد اسرف الجنرالات في السفر الى خارج البلاد لجمع الاموال لمصلحة الجباية اليهودية الموحدة وحصلوا هناك على "متعهدين " أغنياء حتى بين اليهود الذين رحلوا عن اسرائيل.

في الوقت الذى لم يكن فيه الجنرالات في وظائفهم كان من الممكن مشاهدتهم في المقاهى محاطين بشعراء البلاط والفتيات الجميلات .. واذا كان من حق وزير الدفاع موشي ديان ان يتناول

الغذاء يوميا في أغلى مطاعم تل ابيب، على حساب وزارة الدفاع، فلماذا لا يترسم خطاه الضباط الآخرون!

هذه الظاهرة كانت منسجمة مع الفساد الذي ساد المجتمع بعد حرب حزيران ولاسيما في اثناء حرب الاستنزاف، فكثيرون من اصحاب الاعمال الانكياء اكتشفوا "منجم ذهب" في وزارة الدفاع، وفي مشاريع بناء التحصينات بمقاولات جعلت بعض المقاولين الصغار من اصحاب الملايين، بين عشية وضحاها...وكان بين هؤلاء المقاولين من خدعوا وزارة الدفاع، وبعضهم دفعوا الرشوة للحصول على العمل وآخرون أشركوا الجنود في عمليات الخداع ليسرقوا من أموال الجمهور وقد شمل الركض وراء الثروة ضباطا من سلاح الجو ومن سائر قطاعات الجيش .. لقد تبنى الجنرال حاييم بار ليف وضباط آخرون موضة تدخين السيجار بالطبع ليس هناك أى عيب في ذلك ولكنه دليل على الروح التى سادت البلاد والجيش. هذا الوضع يوحى بطرح السؤال: ما هى حدود الجائز والمحظور بالنسبة للقادة الكبار؟ وهنا يبرز دور المثال فاذا كان الجنرال ديان يقود سيارته بسرعة هائلة مستخفا بكل شارات المرور وقوانين السير، واذا كان الجنرال ديان يستعمل العتاد العسكرى مثل طائرات الهليكوبتر لنقل الاثريات الخاصة به واذا كان الجنرال ديان يتناول الطعام في خيرة المطاعم الاسرائيلية، فلماذا لا يسير مرؤوسوه على هدى خطاه؟ وحتى في الصفوف الدنيا من الجيش انعكس هذا الوضع، وقبل الحرب الاخيرة بمدة وجيزة كتب الجنرال المتقاعد حاييم هرتسوغ عدة مقالات عن تردى الطاعة العسكرية في الجيش .

أكثر من ذلك فقد تعمق في السنوات الاخيرة مجرى تسييس الجيش وعسكرة السياسة كثيرون من الجنرالات انتقلوا من مواقعهم

في القيادة العسكرية الى مناصب وزارية وادارية عديدة وتغلغلت الحزبية داخل الجيش فالفرقة التى يقودها ضابط من المعراخ (التجمع) أصبح الجنود يطلقون عليها اسم "فرقة المعراخ، والفرقة التى يقودها رجل الليكود (التكتل) اصبحت "فرقة الليكود" ...

كان من هموم بن غوريون الرئيسية،الحيلولة دون هذا الوضع . حاول بن غوريون دائما ان يضع خطا واضحا بين السياسة والمجتمع من جهة والجيش من جهة اخرى ... وسقوط هذا "الخط" كان مقدمة لسقوط "خط بار ليف" فيما بعد ...

ولكن، هل صحيح ان تسييس الجيش يؤدى الى ضعضعته؟ نحن لا نرى ذلك اطلاقا صحيح انه ينبغى حفظ التوازن بين التقديرات والمعايير السياسية والعسكرية.

على أية حال تلك هي الصورة، ولكل امرىء ان يراها من حيث يشاء...

(٧)
اضافات شمالية وجنوبية

نترك "العجل الذهبى" راتعا مطمئنا بين اعشاب الذكريات، ونعود قليلا الى ميدان الدم والحسرات لنستعرض قليلا من تاريخ الجندى الشجاع "تسفيكا"- كما سجله المؤلفون السبعة- لعلنا واقعون على شىء من العبرة، في شيء من الصورة:

"قبل ذلك بساعات قليلة رأى تسفيكا دبابة قائد كتيبة منقلبة في جانب أحد الوديان على هضبة الجولان. لم يعرف مصير قائد الكتيبة. على طول الطريق هرع جنود مصابون بالصدمة. كان اولئك

من طواقم الدبابات التى اصيبت واحترقت، وجنود مشاة فقدوا وحداتهم ولاجئون من بقايا القوات التي طيلة ٣٠ ساعة منذ اندلعت الحرب، خاضت معركة يائسة لوقف سيل الدبابات السورية التى غمرت هضبة الجولان. حارت الدموع في عيني تسفيكا حين رآهم لم يخطر في باله ابدا ان يرى الجنود الاسرائيليين فى حالة كهذه. كانوا مشردين في مؤخرة القوات السورية المتقدمة غربا دون ان تكون لديهم فكرة عن مكان العدو ومكان قواتهم. أخذ يصرخ عليهم ويعطيهم الاوامر، وخلال دقائق معدودة كأنما عاد هؤلاء جنودا من جديد. نظمهم كقوة وأمرهم بالصعود الى الدبابات التى كانت معه حين وصل تسفيكا الى "عليقة" في مركز هضبة الجولان ، رأى ثلاث دبابات اسرائيلية في حالة جيدة وصالحة للاستعمال. كانت الدبابات خالية لقد تركتها طواقمها. في تلك اللحظة احس تسفيكا ان قواه تتخلى عنه"...ثم يروى تسفيكا انه كان جريحا ولكنه كان قادرا على مواصلة القتال من الناحية الجسمانية اما من الناحية النفسية فقد كان منكسرا. كان يحس ان الجيش الاسرائيلي قد انتهى، وكان لديه شعور الجندي المضروب والمهزوم.

ويواصل المؤلفون سرد تاريخ الجندي الشجاع تسفيكا:

"حين وصلت الدبابات السورية الى سياج المعسكر، نجح تسفيكا بدبابته، مع قائد دبابات آخر بدبابة وحيدة، نجحا في دخول المعسكر في محاولة لوقف السوريين. في هذه اللحظة اصيب سائق دبابة تسفيكا بانهيار عصبي. حين رأى الجنود الهاربين أمام الدبابات السورية انفجر صارخا، غادر الدبابة صعد على مجنزرة وهرب من المعسكر لقد بقى تسفيكا بدون سائق دبابة في داخل دبابة مصابة

وغير صالحة للاستعمال "لقد بلغ الوضع العسكرى على هضبة الجولان درجة من الحرج لم يعد فيها مناص من اللجوء الى سلاح الطيران الاسرائيلي لانقاذ ما يمكن انقاذه على أرض الجبهة...غير ان تدخل الطيران الاسرائيلي لم يكن "مثمرا" وفعالا على الجبهة بقدر فعاليته في ضرب الاهداف المدنية مثل مصافي البترول وبعض الاحياء الدمشقية ... ويصف المؤلفون استمرار السوريين في التقدم رغم تدخل الطيران الاسرائيلي ويصفون معركة بين رتل من الدبابات السورية وطائرتى فانتوم، لم تدم أكثر من خمس دقائق، حتى شوهد طياران اسرائيليان وهما يهبطان بالمظلة بين القوات الاسرائيلية ... شعور من اليأس القاتم سيطر على بعض المقاتلين الاسرائيليين لدرجة قولهم: "الرصاصات الاخيرة أبقيناها لانفسنا "..

ويروى الجندى بوعز كوهين (٢٦سنة) شيئا من ذكرياته على الجبهة السورية:

"حكى لنا زملاؤنا على متون الدبابات أنهم رأوا في الطريق قوات سورية غير عادية. عرفت ذلك لانني رأيت تلك القوات وهي تدخل، تساءلت في دهشة: كيف ولماذا توقفت كل هذه القوة عند "خشنية" وعسكرت هناك؟ هذه القضية أقلقتنى كثيرا حاولت ان أفسر لنفسي: أنهم ـ السوريين ـ يحاربون بشكل لا بأس به. ولكنهم يحاربون كما تعلموا تماما وكما خططوا سلفا في اللحظة التى يتلقون فيها ضربة، أو محاولة لتغيير شيء ما فانهم ينكسرون ويقدمون مستوى رديئا للغاية... حين سمعت كيف أن قائد الدبابة عندنا المرحوم داني بيركوفيتش، تسلم القيادة في منطقة تضم قوة فرقة كاملة من الدبابات، ادركت ان هذا بالذات هو السبب في انتصارنا. ببساطة توقف

السوريون في منطقة الاسلاك الشائكة في الهضبة ولم يتقدموا. لماذا؟ ـ سنسألهم ذات مرة وأرجو أن نتمكن من إن نسألهم". نحن، ايضا نرجو أن يجيء ذلك اليوم الذى يتمكن فيه بوعز من اجراء حوار "مهنى" هادىء مع "زملائه" السوريين، في مقهى ما في تل-أبيب أو دمشق، يوم تصبح الحرب ذكرى بعيدة لهذا الزمن الكريه...

ديناصورات على السويس

في هذا الفصل، وهو الحادى عشر من فصول الكتاب السبعة عشر، يتحدث المؤلفون عن عملية العبور الاسرائيلية الى الضفة الغربية من السويس ...

كلام كثير قيل حول هذه العملية. ورغم اهميتها الدعائية فان كثيرين من الخبراء العسكريين رأوا فيها عملية قصيرة النظر ورأى بعض هؤلاء الخبراء أن مجالين هامين كانا مفتوحين أمام المصريين لتنظيف الجيب الاسرائيلي غربي القناة: المجال الاول مفتوح أمام الجيش الاول الذى لم يكن قد رمى بثقله الى المعركة والمجال الثاني مفتوح أمام الجيش الثاني المتمركز على ضفتي القناة في القسم الشمالى لاسيما وأن الثقب الذى تسللت منه القوات الاسرائيلية كان ضيقا بالنسبة لجبروت القوات المتواجدة هناك .

بدات عملية العبور الاسرائيلية بايجاد "فتق" صغير في منطقة البحيرات المرة وهى منطقة ضحلة المياه يقال أن النبى موسى قاد اليهود عبرها في هجرتهم عن مصر قبل ٤٠٠٠ سنة !

لم يكن ايجاد ذلك " الفتق " بالامر اليسير "ففي حوالي ساعتين،

انصب، على مساحة لا تزيد عن ٥٠٠ متر مربع، ما لا يقل عن ٧٠ طنا من القنابل المدمرة" ...

كانت لدى الجنرال شارون ثلاثة تقديرات بشأن هذه العملية:

"لم تظهر أية قوة مصرية هامة في مواجهة الفتق.

العبور الى الضفة الغربية من شأنه ان يشوش كل تنظيم الجيش المصرى، بهذه الطريقة يصبح ممكنا توجيه ضربة للدبابات المنتظرة غربى القناة وبعد ذلك معالجة فرق المشاة المتمركزة في الشرق.

ثغرة كهذه من شأنها أن تحيد بطاريات الصواريخ المصرية التي منعت سلاح الطيران الاسرائيلي من القيام بعمليات واسعة في الجبهة الجنوبية".

كانت هذه تقديرات الجنرال شارون ...أما مدى نجاح هذه التقديرات فهو موضوع للحوار ...

كان متوقعا وطبيعيا أن تنفجر مع المعركة العسكرية معركة سياسية، وها نحن شهود اليوم على أن هنرى كيسنجر يتخذ اليوم ـ ويعطيه الكثيرون ايضا ـ مظهر "حمامة السلام"!.

من الحمق أن نتصور وزير خارجية أكبر دولة استعمارية "حمامة سلام" حقيقية .. أن القوة وحدها .. قوة الشعوب الصامدة التى يدعمها جبروت الانظمة الاشتراكية وفي طليعتها الاتحاد السوفييتى .. هذه القوة هى التى تجبر كيسنجر وأسياده وأمثاله على ارتداء ريش حمامة السلام، لان دروع الحرب التي هى جلدهم الحقيقي ما عادت قادرة على الصمود الابدى في مواجهة قبضات الحرية!

لا ريب في أن البحث عن صيغة لوقف اطلاق النار واجهته صعوبات من الجانبين العربى والاسرائيلي ولا ريب في أن كيسنجر أدرك هذه الصعوبات فكيف كان رده؟

..."دعوا الاولاد يلعبون قليلا".. هكذا كان السيد هنرى كيسنجر يستمد متعة الدم والدمار والويلات ..

غير أن المسألة ليست منوطة بارادة السيد هنرى، فان هناك يدا فوق يده، وحين ارتفعت تلك اليد تغيرت لهجة السيد هنرى، الى درجة القسوة على السيدة غولده مئير .. لقد حاولت السيدة مئير التأثير على عواطف كيسنجر اليهودية فذكرته بأنه كان يقطن مدينة "فير" على مقربة من أفران الغاز في معسكر داخاو، ولذلك ينبغي عليه أن يتقبل وجهة نظرها!

وجاء رد هنرى كيسنجر جافا باردا، وهو يحس بالظل الثقيل الملقى عليه من فوق من اليد العليا:

"أيتها السيدة رئيسة الوزراء .. نحن لا نبحث في الايمان. نحن نبحث عن حلول بديلة، للقضايا الملحة .."

وكان وقف اطلاق النار، والخطوة الاولى نحو مؤتمر جنيف ..

حيوانات اسطورية، ديناصورات مرعبة. هكذا بدت وتبدو آلات الموت والدمار والهلاك على ضفتى السويس. هذه هى صورة الوضع الذى أدى اليه العدوان والاحتلال والتنكر الفظ لحقوق الشعوب المشروعة .. ديناصورات على السويس .. ويبقى كلام كثير عن الحرب الرهيبة ..

(٨)
الحرب الناقصة

عملية العبور المصرية وصفها الشاذلى بالسمفونية.. سمفونية مكتملة، نوتة وعزفا، تخطيطا وتطبيقا .. أما عملية العبور الاسرائيلية فيصفها المؤلفون "بالحرب الناقصة" أو السمفونية الناقصة في لغة الموسيقى ..

من الاسباب الرئيسية لاكتمال سمفونية العبور المصرية، ان الاسرائيليين لم يتصوروا ابدا ان يقدم العرب على القيام بعملية في مثل هذا الجبروت وهذا الشمول .. عنصر المفاجأة لعب هنا دورا هاما.

وفي الجانب المصرى، ليس صحيحا ما اشيع من أن المصريين لم يأخذوا بالحسبان امكانية عبور اسرائيلي .. فكل التحصينات على الضفة الغربية وخريطة توزيع المواقع والقوات العسكرية تشير الى ان المصريين لم يستبعدوا ابدا امكانية التسلل الاسرائيلي من موقع ما على طول الجبهة.

رغم ذلك فقد لعب عنصر المفاجأة دوره الهام في هذه العملية ايضا.

في البدء لم يقدر المصريون ابعاد التسرب الاسرائيلي تقديرا سليما، وظنوه مجرد محاولة عديمة الاهمية، في مجرى الهجوم الاسرائيلي الشامل على الجبهة الوسطى.

وتتوزع مسؤولية المفاجأة على بعض قادة الجبهة الوسطى

المصرية وعلى القيادة العليا نفسها التى اكتفت بالتقارير المتفائلة ولم تتخذ الاجراءات الاحتياطية اللازمة للجم القوة المتسربة، كما انها لم تلتزم الخطة العربية ـ السوفييتية الموضوعة سلفا كما صرح الجنرال الشاذلى مؤخرا.

لم تكن عملية العبور الاسرائيلية جديدة في شيء فهى عملية كلاسيكية نستطيع العثور على مثيلاتها في جميع الحروب السابقة. ومع ذلك فقد حققت نجاحا ملحوظا، وأن كان في اساسه نجاحا اعلاميا معنويا.

"وفقط، بعد أن اجتازت قوات الجيش الاسرائيلي مساحات واسعة نسبيا، ظهر أمامها كل جبروت العتاد المصرى. عشرات المعسكرات التى بنى معظمها بأيدى الجيش البريطانى في الحرب العالمية الثانية، قواعد عسكرية كثيرة، خنادق ومخازن ذخيرة تحت أرضية على طول عشرات الكيلومترات. وكانت هناك مخازن امدادات أمامية، مزودة بالكثير من الاغذية الممتازة وباحتياطي من الذخائر يكفي المصريين أياما كثيرة من القتال".

يتضح فيما بعد ان المصريين اعدوا ايضا لامكانية غزو مدينة السويس ومدن القناة الاخرى، الامر الذى جعل العبور الاسرائيلي سمفونية ناقصة لا أمل في اتمامها، واليكم ما رواه احد الجنود الاسرائيليين عن الاشتباكات في ضواحي السويس:

"دخلنا احد البيوت ولكنه اتضح لنا أن البيوت هى أكثر المصائد شرا. من الدور الثانى والثالث سكبوا علينا القنابل اليدوية، ومن المنازل المجاورة، عبر الشارع، وجه القناصة نيرانهم نحو المنافذ. كان الخروج مستحيلا. عزلنا في بضعة منازل حول مفترق الطرق، ولم يكن بيننا من وسيلة اتصال سوى أجهزة اللاسلكي. ولم نتقدم عن

المكان الذى توقفت فيه سياراتنا بأكثر من ٤٠٠ متر. ويبدو أن القوة التى بقيت خارج المدينة سمعت بحالتنا وأخذت تقدم لنا مساعدة مدفعية".

وعقب المؤلفون على هذه الرواية وروايات اخرى مماثلة:

"اتضح ان الانطباع بأن مدينة السويس خالية من البشر كان انطباعا خاطئا. عوضا عن السكان الذين بقوا فيها، فقد تسللت إلى المدينة أجزاء من الجيش الثالث من غربى القناة. وأنضمت اليهم ثلاث فرق من المغاوير (كوماندو) المصريين، عسكرت فى المدينة واستترت بين منازلها. لم يتوقف هؤلاء عن اقتناص الجنود الاسرائيليين المحاصرين حتى ساعات الليل.

استلقى الجرحى على الارصفة ولم تكن هناك امكانية لانقاذهم. بعضهم جرحوا عدة مرات، وبعد كل مرة أصابتهم رصاصات أخرى. بعد عدة ساعات دخلت الى المدينة مجموعة من المصفحات والدبابات التى قدمت لاخلاء المصابين. وكان الامر يقضى باخلاء القتلى والمصابين بجراح طفيفة. أما المصابون بجراح بليغة فقد خبأوهم مع الجنود السالمين. كان هناك خوف من الا يتحملوا هزهزات الطريق".

ويتذكر المصور العسكرى شلومو عراد جانبا مما حدث للغزاة على مشارف مدينة السويس:

"أطلقوا علينا النار من كل نافذة. لم يكن هناك بيت واحد لم يطلقوا منه النار. على الشارع استلقى جرحى يصرخون في طلب النجدة. وانطلق المظليون نحوهم في محاولة لانقاذهم من قلب النار. كل من فعل ذلك أصيب هو أيضا. من داخل الباصات التى اصيبت سمعنا ايضا نداءات استغاثة. بدون اى جهد، القى علينا الجنود المصريون المتحصنون في المنازل قنابلهم اليدوية، ببساطة، قذفوا

تلك القنابل عبر الشبابيك. بعض الجرحى استلقوا في وسط الشارع وتلقوا رصاصة، ثم اخرى، ثم اخرى. وثرثرت اجهزة الاتصال بلا توقف: "نطلب النجدة، لا نستطيع أكثر من ذلك". مصفحة قائد القوة، يوسي، تلقت ضربة مباشرة من بازوكا. جرح القائد، والرجال الذين كانوا معه، اما انهم جرحوا أو قتلوا".

بعد روايات واعترافات عدد من المقاتلين الاسرائيليين في ضواحي مدينة السويس، يخلص المؤلفون الى الاعتراف بأن "المعركة على مدينة السويس انزلت خسائر فادحة بقوة المظليين الاسرائيليين".

في فصل سابق سجلنا اهداف الجنرال شارون التى سعي لتحقيقها من اختراق البحيرات المرة والعبور الى الضفة الغربية. وقلنا ان مدى نجاح الجنرال شارون مطروح للنقاش.

وفي نهاية هذا الفصل، يقول المؤلفون بأن ايا من الجانبين، العربى والاسرائيلي، لم يحقق اهدافه فى هذه الجبهة، وبهذا تكون حرب العبور الاسرائيلي حربا ناقصة .. سمفونية ناقصة .. حربا ناقصة ..

(٩)
انسان في مواجهة الدبابة

في غمرة الحرب، كان الانطباع الذى خلقته الدعاية الاسرائيلية حول نشاط المغاوير العرب على الجبهة الجنوبية، ان الفشل الذريع كان نصيب جميع محاولات الانزال التي قامت بها وحدات المغاوير.

وكانت الدعاية الاسرائيلية تربط بشكل مباشر بين اسم الجنرال الشاذلى وبين تلك الوحدات، مؤكدة ان الشاذلى كان قد اشرف شخصيا على تأسيس تلك الوحدات واعدادها للقتال.

غير ان مؤلفى "وثيقة الفساد" يسجلون للمغاوير عمليات لا يمكن وصفها بالفشل:

"في الساعات الاولى من نهار يوم الاحد، حين كانت الدبابات الاولى، من احدى وحدات المدرعات، مندفعة الى الجبهة الجنوبية، اصطدمت بكمين كبير، من رجال الكوماندو المصريين. سمح هؤلاء لقوات القيادة، التى سارت فى الطليعة، ان تمر بسلام. وفقط حين وصلتهم الدبابات فتحوا عليها النيران المضادة للدبابات. منذ الصلية الاولى أصيب عدد من الدبابات بقذائف البازوكا التى انطلقت من مدى قصير. جنود الوحدة الاوائل سقطوا قبل وصولهم الجبهة. وقد روى أحد القادة عن الاصطدام بكمين الكوماندو: "لقد عملوا كالمنتحرين. خرجوا لمواجهتنا من بعد أمتار معدودة، صوبوا بازوكاتهم نحو الدبابات ولم يخافوا شيئا. بعد كل صلية نار كانوا يتدحرجون، تحت العجلات تماما، ثم يستترون بين النباتات على الطريق ويعبئون البازوكات لصبة نار اخرى". ورغم ان القسم الاكبر من رجال الكوماندو اصيبوا في الحال، فان رفاقهم لم يركنوا للفرار، بل واصلوا معركة اشغال، معركة انتحارية مع الدبابات، وكأنهم حزموا الامر على التضحية بحياتهم على الا تمر الدبابات .. لم يكن سرا بالنسبة للجيش الاسرائيلي ان الجيش المصري مزود بصواريخ "ساجر" المضادة للدبابات، غير ان المفاجأة كانت تكمن في جهل الجيش الاسرائيلي اساليب القتال السوفييتية بهذه الصواريخ".

كما ان صواريخ "سام ٦"، التى تتحرك على متون السيارات او المجنزرات، وصواريخ "سام٧" التى تحمل على الكتف كالبازوكا، أدت دورا رئيسيا في المعركة المضادة للطائرات. ليس من عادة اسرائيل ان تعلن عن خسائرها في الطيران، غير ان صحيفة "أفييشن ويك" الامريكية، المتخصصة في شؤون الطيران، زعمت ان اسرائيل فقدت في الحرب ١١٥ طائرة من كافة الانواع التى تملكها، وان هذه الكمية تساوى ١٨٪ من سلاح الطيران الاسرائيلي. ونحن لا نعرف مدى دقة هذه الاحصائية، التى وان لم تصدر عن اسرائيل فقد صدرت عن مجلة لا يمكن اعتبارها مصدرا رسميا او نموذجا للموضوعية.

كذلك الامر بالنسبة لخسائر اسرائيل في الدبابات. كل ما نشر حول هذه الخسائر ليس سوى تقديرات من مصادر غير دقيقة الاطلاع او غير أهل للثقة.

وتبقى بعد كل ذلك الظاهرة الجديدة في تاريخ منطقتنا: الجندي العربي الذى يواجه اعداءه مشحونا برغبة الفداء على الا تمر تلك الدبابة الغريبة الغازية.

(١٠)
ماذا حدث لديان؟

من الطبيعي ان يبحث الرأى العام الاسرائيلي عن تفسير للنكسة الكبيرة الاولى في تاريخة .. ذلك التاريخ القصير والملىء "بالامجاد العسكرية".. ومن الطبيعي ان تدور جميع التفسيرات والتبريرات

حول التفسير الحقيقي دون ان تدركه.

باستثناء الشيوعيين وبعض الاوساط والعناصر الدمقراطية الواعية، فان الاغلبية الساحقة من سكان اسرائيل لم تضع اصبعها على موطن الداء الاساسى الكامن في سياسة الغطرسة العسكرية والعدوان التوسعي والتنكر المستمر لحقوق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه الشرعي.

من هنا فقد كثرت وتنوعت التبريرات الواهية من طراز "كلنا مسؤلون".. "الروس المذنبون" .. "الاستخبارات هى المذنبة".. وهلمجرا..

أما مؤلفو "وثيقة الفساد" فقد اختاروا كبش فداء طالما سمنه القوم ودللوه وتعبدوا له.

موشيه ديان ..الجنرال موشية ديان .. ديان الذى اقترن اسمه بكل الغطرسة العسكرية الاسرائيلية من اولها الى اخرها ..

ماذا يقولون عنه في كتابهم هذا؟

"خلق موشيه ديان لنفسه، في العالم وفي اسرائيل، صورة عبقري عسكري. غير ان الخبراء العسكريين والمفكرين العسكريين الذين عاشروه يعرفون ان ديان، في الواقع، هو متوسط للغاية، ويفتقر لبعد النظر فى تفكيره العسكري".

ومن ثم يفندون تصريحاته بأن الجيش الاسرائيلي كان على اهبة الاستعداد للحرب، ويزعمون ان العكس هو الصحيح. ويؤكدون "ان

الجيش الاسرائيلى، أو جزء منه على الاقل، لم يكن مستعدا لنوع الحرب التي أملاها العدو، لاسيما العدو المصرى".

ويرى المؤلفون ان غلطة ديان التراجيدية هى في انه كان يتمتع بنفوذ، مبالغ فيه، على الحكومة وعلى التقديرات الاستراتيجية.

لقد اخطأ ديان حين قدر ان الجيش الاسرائيلي سينتصر على العرب بسهولة، اذا ما نشبت الحرب على احدى الجبهتين أو على الجبهتين معا.

وحده، ومع كثيرين غيره، أسهم ديان في خلق اسطورة الجيش الاسرائيلي الذى يستطيع ان يقوم بأية عملية عسكرية وفي أى وقت شاء .. الجيش الاسرائيلي الذى لا يقهر .. غير أن ديان لم يتحقق مما اذا كانت هناك تغطية كافية في الواقع، لهذه الاسطورة العجيبة. نذكر الكلام الكثير الذي قيل عن "انهيار اعصاب ديان" في اثناء القتال، وعن "فقدانه القدرة على تسيير الامور".. ويورد المؤلفون نموذجا على تخبطات ديان.

استطاع الجنود الاسرائيليون، المتحصنون في احد المواقع جنوبى القناة، أن يصمدوا خمسة ايام. رغم ذلك كان على الجنرال ديان أن يبت في امرهم حين بلغ الموقف ساعة حرجة. غير ان ديان تخبط كثيرا حتى توصل الى قرار عجيب بالفعل .. لقد طلب ديان من قائد الموقع، وهو ضابط شاب في الثالثة والعشرين من العمر، ان يقرر بنفسه.. وقد قرر ذلك الضابط الشاب ان يستسلم وجنوده. وقد عقب على ذلك احد الجنود بقوله: "اي وزير دفاع هو هذا الذي يترك حسما مصيريا الى هذا الحد، في يدى قائد صغير في الثالثة والعشرين من

العمر، فقط من اجل الا يتحمل هو نفسه مسؤولية ما سيحدث؟".

في حرب الاستنزاف سنة ١٩٧٠ دل استفتاء شعبى في اسرائيل على ان ٩١٪ من سكان اسرائيل يرون في ديان الزعيم الاكثر شعبية. في كانون الثانى ١٩٧٢ اعتبر ٩٥٪، من الذين شملهم الاستفتاء، ان موشيه ديان هو احسن وزير دفاع.

في تشرين الثانى ١٩٧٣ دلت الاحصائيات على ان ٢٦٪ فقط يريدون أن يستمر ديان في وظيفته وزيرا للدفاع .. و ٢٪ فقط ايدوا ترشيح ديان لرئاسة الحكومة.

وسقط القناع ..

وانتهت الأسطورة ..